مجلة علم النفس التطبيقي

قسم علم النفس - كليـة الآداب، جامعة المنوفية

ما هي السلوكية؟

ترجمة

الباحث/ نعيم حيماد

وزارة التربية الوطنية – المغرب

تأليف

جون برودوس واطسن

المجلد (٣)   العدد (٤)   يناير ٢٠٢٥ م

ما هي السلوكية؟[1]

ترجمة

الباحث/ نعيم حيماد

وزارة التربية الوطنية – المغرب

تأليف

جون برودوس واطسن

مقدمة المترجم

تُحقق السلوكية كَفرع من علم النفس نَجاحَات سَاحقة في أي ميدان تَلجه، وَلَيس أَدَل عَلَى ذَلكَ، ما وَصَلَت إليه في مَيدَان التعليم، حيث استطاعت حسب مُؤَسسهَا جُون وَاطسن أَن تُربي لأَفراد وَتُنشئهم اجتماعيا بمواصفات خاصة. فالتعليم مجال لخلق منتُوج إنسَاني مُتفوق، يَبدأ من منظور السلوكية باستكشَاف البيئة ومَعرفَة المثيرات واستجاباتها، ومن ثم تصنيفُها وفق دَرَجَة خدمَة السلوك المَطلُوب إنتاجه لدى المتعلمين في غرفة الصف. لقد اعتُمدَت السلوكية بشَكل وَاسع في الغُرَف الصفية من قبَل المعلمين في تَعزيز سلوك الطلاب إيجابيا، وسلبيا، وفي العقاب وإزالة التعزيز، وكُلهَا مُصطلَحات لاَ تَزَالُ تُسيطر بشَكل واسع عَلَى مُقَارَبَات التربية والتعليم، وإن تغيرت أَسماؤهَا فَقَد بَقي مَدلُولُها شَاهدا عَلَى مقدَار الفَائدَة التي جَلَبَتها السلوكية إلى الغُرف الصفية. إنه لَأَمر بغاية الأهمية أن نُعيد قراءَةَ مَقَالَة جون واطسن؛ ما هي السلوكية؟ عَلنَا نُفيدُ منها؛ نُعزز ما عرفناه ونَلتقطُ ما غَفلنَاه. وإنني بدوري ارتأيت ترجمة المقالة لإيماني بأن السلوكية هي عمادُ فَهم الكثير من الأَسَاليب والتقنيات المُعتمَدة في تعليم اليَوم، ولَعَل التمعن فيها بتَبَصر وإرادة فهم، يجعلنا نكتشف العلاقة بين الأداة والهدف في التعليم.

---

[1] Paicheler, G. (1992). *L'invention de la psychologie moderne*. Paris: L'Harmattan, pages : 297-302.

منذ سنوات ونحن لا نسمع إلا عن فرويد ومنهجه التحليل النفسي، هذا المنهج الذي ضَمن للناس المخلصين له إمكانية حل جميع المشكلات النفسية. أما اليوم، بينما تعرض عليكم كل بائعة أحلامها وعقدها، تراجع الاهتمام البالغ الذي حظي به التحليل النفسي، حتى إنه لم يعد موضوعا مهما يطغى على محادثات الصالون، ليس لأن الواحد منا قد يصدمه النقاش، بل لأن جِدته فقدت سحرها.

وكما هو حال كل التيارات الجديدة في الحقل العلمي، فقد كان الجانب العلمي في علم النفس الفرويدي –العلم الحقيقي– ضئيلا جدا، مما أفقده جاذبيته.

يوجد حاليا علم نفس جديد أيقظ همة العامة. هذا العلم كان حبيس النطاقات الجامعية في السنوات العشر الأخيرة. أما الآن فقد استأنفت الجرائد عملها بأن أخذت تغذي الجماهير بهذا العلم ولو بجرعات صغيرة. هذا العلم الذي ظهر منافسا هو السلوكية.

تُشكل السلوكية مجالا مستقلا للدراسة في الجامعات منذ ما يقارب ١٩١٢، ويعتبر نهضة حقيقية في علم النفس. وإلى حدود هذا التاريخ كان علم النفس الموصوف بذاتي أو استبطاني، الأكثر تأثيرا. فهو كما تم تعريفه؛ دراسة الروح، روحنا الخاصة في الواقع، بحيث لا أحد آخر (غيرنا) يستطيع أن يغوص فيها ببصره ويرى ما يحصل فيها. وعندما تمعنون النظر ماذا تبصرون فيها؟ بما أنكم ستنخرطون في نسق ولغة "جيمس، وأنجل، ولاد، وفوندت" فستقولون أنكم ترون الوعي. إذن تكونون جربتم تحليل هذا الوعي. ما المقصود به؟... ولماذا يجب علينا وصف الوعي بذكر الوحدات التي يتركب منها؟ يُبنى الشعور انطلاقا من وحدات الإحساس، مثل الحمرة والخضرة؛ إحساسات الصوت والرائحة والحرارة وأشياء أخرى. ثم وحدات الانطباعات، وتدعى "رضى" أو "انزعاج". فعندما يحضر عدد كاف من هذه الوحدات الحسية ملازما لأحد الانطباعات، تكونون بصدد ما نسميه *الإدراك*، مثال ذلك، إدراك برتقالة أو تفاحة.

قد يتعقّد مضمون الوعي ومكوناته عندما نتمسك بالحالة التي تغيب فيها الإدراكات، بمعنى الحالة التي لا يكون فيها أي شيء ماثلا أمام الذات، إن الوعي في هذه الحالة يتشكل انطلاقا من تمثلات الأشياء وتسمى الصور.

هكذا تغدو كل معطيات هذا النمط من علم النفس ذاتية. والطريقة الوحيدة لدراستها ترتكز على الاستبطان، عبر إلقاء الذات نظرة نحو الداخل على وعيها الخاص. ونسمّي علماء النفس هؤلاء بعلماء نفس ذاتيّين. أو علماء نفس استبطانيّين. والتحقّق من النتائج – باعتباره الرهان الأول لكل علم حقيقي – ليس أبدا بالمستحيل لمن يدرس علم النفس على الطريقة الاستبطانية.

لقد كان وقت تحليل الروح أمرا هيأه الزمن، ورسخه الكتاب المقدس، كما فعلت الفلسفة ذاتها. حقا لم يكن أحد ليتجرأ ويجازف دون أن يكون لديه سند ويتساءل عن وجود الروح أو يتساءل حول الظاهرة التي تتكوّن من الوحدات الواعية.(...)

إنه بالضبط، ورغم كل شيء، ما فعله السلوكيون.

...جمعت معطياتي ثانية وأحلتها إلى زملائي، وبعد أن استوعبوها، قرروا بأن السلوك الإنساني للبالغ معقّد فهمه دون معرفة بعض من طفولته المبكّرة وطفولته. إننا لحد الآن لم نستطع أن نفهم لماذا نجد في الناس بَناء وآخر فنانا وآخر لاعبا. ولا لماذا بعض الرجال غير مكترثين وقانعون وهم بذلك أزواج صالحون، ولماذا الآخرون لا يكونون كذلك. لا نستطيع أن نفهم لماذا بعض الناس لا يبرحون بيوتهم أبدا، ولا يتزوجون، حتى إنهم لم يشاهَدوا يوما بصحبة النساء. يجب أن نتقصى السلوك المبكر للإنسان حتى نرى ما إذا كان سيوضح لنا سلوكه المستقبلي. هل بعض الفوارق تعود إلى اختلافات فطرية وغريزية في السلوك أم فقط إلى اختلافات في النضج المبكر في التكوين؟

أنطلق ثانية من أرض الواقع، لكني هذه المرة أبدأ ملاحظاتي حول المواليد الجدد، وأدوّن بحرص شديد سلوكهم منذ الولادة، بدءا بالأشكال الجديدة غير الملقنة للسلوك، التي تطورت

ونمت على مسافة محددة من الولادة. درست بموازاة ذلك كيف أن تكوين العادات يمكن أن يُثَار في هؤلاء الأطفال الصغار، ودوّنت مختلف الوسائط التي تساعد على تكون العادات الجديدة، وبعبارات أخرى، بدأت حسب ملاحظاتي بتمييز الجانب الفطري في السلوك الإنساني عن الجانب المكتسب، وهذا أيضا يخصّ علم النفس.

ستلاحظون بأننا فيما يخص هاته المواصفات بدأنا بملاحظات عامة حول الأشخاص الذين لم تكن أية وسيلة للدراسة أو مختبر ضروريا بالنسبة لهم. ثم انتقلنا إلى المواليد في المختبر، مستعملين لدراسة الظاهرة كل الأجهزة المصممة آنذاك. إن السلوكية في عبارات أخرى تلغي التمييز بين ظواهر ذاتية وأخرى موضوعية. لذلك فجميع الظواهر المرتبطة بالكائنات الإنسانية تعتبر موضوعية، حتى الأشياء التي تدعونها الآن "ذاكرة" و"فكر"!. لقد تعودتم أن تُطلقوا على هذه الدراسات العامة نفسية–اجتماعية أو سوسيولوجية، وحين يتعلّق الأمر بدراسات جد ضيقة حيث يلزم المختبر، يُقال دراسات سيكولوجية أو علم نفس تجريبي. إن السلوكيين لا يعتقدون في هذه التمييزات القديمة، فالكل هو علم نفس. و بهدم هذه التمييزات تغدو الفلسفة مهددة بكاملها ومعرضة للخطر. وقد غدت وجهة النظر السلوكية من الآن فصاعدا مهيمنة، وأصبح من العسير إيجاد موقع لما يُدعى الفلسفة. لقد قضت الفلسفة نحبها –فلم تكن إلا حدثا عابرا– على الأقل إذا لم تنفتح فيها منافذ جديدة والتي ستضع أسسا لفلسفة جديدة. لقد شهد العالم آخر فلاسفته العظماء.

إلى هنا، كان علينا أن نتناول الوقائع النفسية كما بدت لنا. هل نحن في وقت متأخر حتى نكون مؤهلين؟ هل ما نزال بعيدين للوصول إلى أن نكون مؤهلين للتنبؤ أيا كانت النتيجة بشأن الأفراد؟ لقد قطع الإدراك الإنساني بدلا من علم النفس العلمي شوطا حقيقيا في ما يتعلق بالتنبؤ: إنكم لا تستطيعون العيش مع أناس دون أن تتنبؤوا بشأنهم، إنكم على علم بما سيقولونه ويفعلونه. لهذا السبب يعيش الكثير من الناس حياة رتيبة. إذا أطلقتُ النار صدفة من مسدس بشكل عشوائي خلف نحو عشرة أفراد يجلسون بهدوء داخل حجرة، فإنني أستطيع التنبؤ دون

خشية الوقوع في التناقض بأن تسعة منهم على الأقل سيَفزون ويصرخون ويتغير إيقاعهم النفسي والقلبي. وعندما ألقي ببعض الأفراد العراة، الذين لم يتعلموا السباحة يوما، في حوض صغير بقطر خمسمائة متر، فسيغرقون كلهم إذا لم يأت أحد لإنقاذهم، وإذا فكرتم في الأمر للحظات فستدركون أن جل مؤسساتنا وبنوكنا وكنائسنا والمتاجر الكبرى، ومؤسسة الزواج نفسها، كلها تتأسس على افتراض أن السلوك الإنساني يمكن –ربما– عموما التنبؤ به.(...)

إنه من الممكن القيام بهذه التنبؤات باعتماد ما تراكم لدينا من المعطيات السيكولوجية ببطء عبر التاريخ، وليس بفضل مجهودات علماء النفس ذوي الخبرة. على أحد هؤلاء العلماء أن يكشف عن نفسه الآن ويُعلمنا بشكل أكثر دقة بما سيفعله هذا الفرد أمام وضعية الحياة التي عليه أن يُواجهها.(...)

وماذا عن التحكم في الظواهر السيكولوجية؟ هل تقدرون أن تثيروا لدى الفرد سلوكا بواسطة تقنية سيكولوجية مناسبة كما يفعل الكيميائي حين يصنع الماء بالجمع بين الهيدروجين والأوكسجين وسط شروط معينة؟

لم نستطع المضي في هذا الاتجاه بعيدا إلى حد الساعة، لكن السلوكية تكاد تعلن ميلادها. من نحو عشرين سنة لم يكن علم الأحياء إلا في مستوى الوصف الخالص. في الخمسينيات كان داروين ملاحظا عظيما للظواهر. وعلى أساس ملاحظاته بنى نظريته في السلالة لكنه لم يرق بها بعيدا. واليوم يوجد علم أحياء تجريبي يسعى إلى التحكم في السلالة حيث يعالج الوسط الكيميائي والفيزيائي للنباتات والحيوانات. إنه يرغب في تغيير الأنواع و تحويلها، والتحكم في النمو، وبشكل عام، تغيير مسار الوراثة.

أما علم النفس فلايزال معظمه في مستوى وصفي. و التحكم في الظواهر عملية تشهد تأخرا في علم النفس مقارنة بالعلوم الأخرى، لأنه أساسا علم جديد، لكن أكثر من ذلك لأنه أنفق كل وقته ساعيا – بلا جدوى– إلى دراسة الروح بدل السلوك.

نكون الآن قد تقدمنا الخطوات الأولى، هنا توجد مجموعة من العث، هادئة تحت ضوء خافت، ولنفترض بأنني قررت أن أحركها بغاية جعلها تطير نحو جهة اليمين، أي الطرف الآخر من الحجرة. كيف أستطيع السيطرة على هذا السلوك و التحكم فيه؟ أشعل شمعة وأحركها في الاتجاه الدقيق الذي أرغب في أن يطير إليه العث، خلال فترة زمنية قصيرة جدا ينشط العث فينطلق متجها نحو مصدر الضوء. هذا العمل، سيتطلب بالضرورة من السلوكي أياما، أسابيعا أو شهورا، بغرض اكتشاف وسيلة للتحكم في الحشرات. وقد اكتشفت وغدت جزءا من التقنية التي يستعملها كل باحث: في المثال الأول الاستجابة (فعل وحركة) تتأسس على الطيران تجاه مصدر الضوء؛ والمثير هو الشمعة المشتعلة. في هذه الملاحظة البسيطة، أنتم بصدد صنف من آليات علم النفس السلوكي معبر عنها بالشكل الأكثر أولية: ليست هناك استجابة دون مثير. كل مثير تام ينتج مباشرة استجابة ما.

وبالرغم من وجود الآلاف من ردود الأفعال التي يكون الإنسان أو الحيوان مؤهلا لإظهارها، سيوجد على الدوام مثير أو شيء في البيئة يوقظ أو يثير لديهم نفس ردود الأفعال. وبحثنا في المختبر يسير في الوقت الحاضر في هذا الاتجاه: نريد أن نعرف بشكل جيد المثيرات التي تستدعي ردود أفعال، و بفضل المعطيات المتحكم فيها بشكل جيد أصبح تنظيم الوسط وإحكامه أمرا بغاية البساطة، و كذلك تقديم المجموعة الضرورية من المثيرات بغاية أداء الإنسان أو الحيوان لذلك الفعل الموجود ضمن قائمة الأفعال الخاصة بهما. لنلج الآن المملكة الإنسانية، أريد أن أجعل طفلا يبلغ من العمر سبعين يوما يرف عينيه، فأي مثير أختار؟ أستطيع أن ألامس جفنيه وإنتاج اختلاج العينين. كذلك يمكنني أن أنفخ في جفنيه أو أن أمرر ظلا بشكل سريع على عينه لتَرُف. هناك إذن ثلاثة مثيرات تثير رد الفعل هذا. لنفترض الآن أنه طُلب مني أن أجعل طفلا يبكي، مع التسليم بأن هذا الطفل لم يكتسب بعد أي عادات، و لم يتعلم أي شيء، بإمكاني أن أقرصه أو أجرحه أو أحرقه، أو أعرضه لأي مثير مؤذ لأجعله يبكي. ولنفترض أني أُريد أن أجعل طفلا ما يبلغ من العمر عشرين يوما يبتسم. أجد بأن الوسيلة

الوحيدة ترتكز على ملامسة شفتيه بلطف، باستعمال ريشة. و كمثال آخر، أداعب خده بلطف خاصة المناطق الحساسة فيه.

لكن المسألة لا تكون دائما بهذه البساطة، فكثير من الموضوعات ليس بإمكانها دفعة واحدة أن تعطي للمثير شكلا خاصا من رد الفعل، وبعضها الآخر لا ينتج على الأرجح رد فعل قابل للملاحظة. على الفرد أولا أن يكون مشروطا بهذه المثيرات، والبيئة تصنع الإشراطية، وهذه عملية بسيطة للغاية. فالنظرة الأولى إلى عصا مثلا لا تؤدي بشاب إلى تجنبها عندما يراها لذلك تصيبه (المثير الأساسي) قبل أن يفكر في تحاشيها. بينما في الحالة التي أنزل عليه بضربة قوية على رأسه، فكل مرة يراني فيها حاملا لعصا فإنه سيسعى إلى تجنبها في اللحظة ذاتها التي يراها (مثير مشروط) في يدي. وهنا أسست استجابة شرطية بصريا، ولم يتطلب الأمر أي ترابط_للأفكار، لأنه بمقدورنا وضع استجابات شرطية مماثلة في غددنا التي لا نستطيع "التحكم" فيها. نستطيع أن نخلقها لدى المواليد الجدد، ولدى الحيوان والحيوانات البسيطة أحادية الخلية.

في جميع مراحل الحياة فإن الموضوعات التي لا تثير رد فعل (بمعنى غير المثارة لتستدعي استجابات معينة) بإمكانها باستمرار اكتساب هذه القيمة الارتكاسية (بحيث تصير مثيرات شرطية)، لأنها تكون حاضرة عندما يثير مثير أساسي رد فعل الجسم. لهذا السبب، كل موضوع في العالم بإمكانه أن يوقظ رد فعل الخوف بسبب حادث خاص في ماضينا. لذلك كل موضوع أو شخص في العالم يمكن أن يُهيأ ليثير استجابة حب حتى لو تعلق الأمر بامرأة مشوهة و محدبة تبلغ من العمر خمسينا عاما، فإنها ستثير نفس الاستجابة لدى غلام وسيم في العشرين من عمره.

و للاستمرار بالتحكم في الفرد – ليتصرف كما حدده المجتمع – نواجهه بمُثيرات ملائمة. ويجب أن نتوفر على معرفة مهمة ليس فقط فيما يخص المثيرات الفطرية الأساسية، لكن كذلك

المثيرات المشروطة. و لأجل اكتساب هذه المعرفة يجب أن نتوجه إلى المختبر وندرس الفرد منذ نعومة أظفاره.

هذا الوصف يهمه أن يصنف بعض إشكالاتنا الأولية، لكن الأساسية، و لنحل هذه الإشكاليات نأمل الحصول على كفاءة كما نجد في علمنا تُمكننا من أن نعمل تحت طلب أي إنسان، بأن نشرع منذ ولادته بشتى الطرق لجعله اجتماعيا أو مقاوما للحياة الاجتماعية (منعزلا). نأمل فضلا عن ذلك الحصول يوما على أهلية تُمكننا من أخذ شاب سيء وبشع اجتماعيا (و لكنه سليم بيولوجيا) و نعمل على إنهاك قواه، و هنا نتكلم سيكولوجيا، لتزويده بمجموعة جديدة من ردود الأفعال.

هل هذا الهدف طموح جدا وبعيد المنال؟ حقيقة لا يزال بعيدا، بعيد فيما يخص الشباب لكننا لم نفقد الأمل. فصعوبة التعامل مع البالغين على قاعدة سلوكية تشكل احتماليا، السبب في أن السلوكيين يتابعون دراساتهم على الرضع و الأطفال الصغار على شكل عمل مثابر، حيث الشروط بسيطة.

لقد تمت ملاحظة بعض الرضع من قبل السلوكيين، لكن لسوء الحظ لم يكن ذلك قد أخذ وقته الكافي للكشف عن كثير من الظواهر الضرورية. رغم ذلك تراكمت مواد غنية ستكتمل بإعطاء "مفتاح التحكم" في السلوك الإنساني للبالغ.

يمكننا الآن أن نحدد بدقة واضحة ما يمكن أن يفعله المواليد، صرنا نعرف المثيرات التي تستدرج استجاباتهم، لدينا كذلك نظرة حول ما يمكن لرضيع يبلغ من العمر ثلاثة أشهر أو ستة أو تسعة أو اثنا عشر. أن يقوم به. وهذا يعطينا نظرة صحيحة عما هو فطري أو شرطي في سلوكه.

هنا تظهر خلاصة غير متوقعة و تُفرَض علينا من خلال هذه الدراسة، تتحقق على الأطفال في سنتهم الأولى أو الثانية من الولادة: الإنسان الصغير يُنفذ عددا قليلا من الأفعال الطبيعية

(الغريزية) التي لم نُخَمنها حتى الآن. الظاهرة الأخرى الأكثر أهمية هي أنه يتعلم فعل أشياء، تُفيد بأنه يصبح مشروطا في أول يوم يأتي فيه للوجود.

ينزع السلوكيون الآن إلى استبعاد مفهوم الغريزة في كليته، والاعتقاد بأن معظم ردود الأفعال المعقدة القابلة للملاحظة لدى الطفل خاضعة للبناء.

نعلم الآن لماذا وكيف يتأسس السلوك الانساني الانفعالي؛ لماذا يتخوف بعض الناس ويخجلون وتكون لديهم القابلية للغضب والغيظ، ولماذا بعضهم يغار وبعضهم يزداد انطواء على نفسه عندما يُسمَع صوت السلطة؛ و لماذا توجد مجموعة من الإحباطات على مستوى التوافق الجنسي أو العائلي. لقد درسنا تجريبيا سيرورة نشوء هذه النماذج الانفعالية في الطفولة، وكُلها تتشكل بشكل قوي أو ضعيف في نهاية السنة الثانية. فَهمنا السيرورة ونستطيع التحكم فيها في حدود مقياس معين. إننا نظل بعيدين على أن نُبصر معظم المواهب وهي تُبنى في وقت مبكر. لقد أصبحت العائلة (بما فيها الأم والأب والأخت والأقارب) مسؤولة عن ما يصير عليه أطفالها. إن التربية هي المسؤولة – وليست الطبيعة –.

أصبح بإمكان العائلة اليوم أن تُعتبر وسيلة لخلق الطفل على صورة أبويه. إن المقولات؛ الابن سر أبيه والبنت لأمها، لم تعد أقوالا تافهة، بل إنها تكاد تكون حقائق محيرة. فطفل العصر الحديث حسب اعتقادي، لم يعد لديه حظ في هذا "البحث عن السعادة" ما لم تتفضل به عليه مؤسستنا. هذه الخلاصة قد تبدو صعبة للغاية وقاسية، لكن السلوكي يحاول دائما إبراز عناصر التفسير. وعندما يتابع دراساته أكثر من قبل فسيكون في مقدوره أن يساعد الأسرة والمدرسة والكنيسة والمجتمع في تربية منتوج إنساني متأقلم مع الجماعة وفي الوقت نفسه حامل لتميزه.